

الأساليب الحجاجية و الإقناعية في القرآن الكريم les méthodes argumentative et convaincants dans le coran

ابتسام صغيور

جامعة الجزائر 2 : أبو القاسم سعد الله

الملخص :

لا ندعي في هذا المقال حصر الأساليب الحجاجية التي وردت في القرآن الكريم و تحديدها واحدة واحدة ، و إنما نحاول حصر بعض منها و ذلك كون الآيات القرآنية جاءت حافلة مزدحمة بهذا النوع من الأساليب بما يستحيل حصره كليا في هذا المقام . و لذا فإننا حددنا ثلاث محاور كبرى دارت في مجراها هذه الأساليب وهي : الأساليب المنطقية العقلية وأساليب التحليل النفسي بالإضافة إلى اتباع أسلوب عرض الأدلة التاريخية التوثيقة والأعراف و القيم الاجتماعية . فضلا عن بعض الأساليب الحجاجية الأخرى التي تتفرع أو تنفصل أحيانا عن هذه المحاور .
الكلمات المفتاحية : الحجاج – الحجة - الأساليب المنطقية العقلية – أساليب التحليل النفسي .

Résumé :

Ne revendiquer pas dans cet article limitation des méthodes argumentatives contenues dans le CORAN et identifiés une par une, mais nous essayons limiter certains d'entre eux car les versets coraniques sont devenus très charger par ce genre de ces méthodes qui sont impossible limiter totalement dans ce lieu. C'est pour ça nous distinguons trois domaines majeurs parlent sur ces méthodes ce sont: les méthodes logiques mentales et les méthodes psychanalyses, en plus de suivre la méthode d'exposer les preuves historiques documentaires avec les coutumes et valeurs sociales ainsi que d'autres méthodes argumentatives que la branche où parfois inséparables de ces domaines

Les mots-clés : l'argumentation - argument - : les méthodes logiques mentales - les méthodes psychanalyses.

تمهيد :

إن كون الخطاب القرآني خطاب عام و شامل لكل البشر و لكل الأزمنة فقد تعددت فيه تبعا لذلك أساليب الحجاج و تنوعت دون أن تقتصر على جانب واحد على حساب الآخر ، و قد اتخذ القرآن الكريم من أساليب الحجاج و الاستدلال و الجدال و الإقناع ما هو جدير بكتاب أنزله رب العالمين خالق كل شيء فجاءت تلك الأساليب شاملة متنوعة لم تغادر صغيرة و لا كبيرة من أساليب الجدل الحق و الإقناع الحسن إلا أحصاها و استخدمها من دون أن يفرط قيد أنملة في الوفاء بشروط الاستدلال اليقيني الذي يؤدي إلى العلم المستيقن الذي لا ريب فيه و لا مراء.1 فما هي تلك الأساليب الحجاجية ؟ و ما هي تلك الحجج ؟ و كيف وظفت في الخطاب القرآني لجعله يمثل خطابا إقناعيا بامتياز ؟

و بناء على هذا فقد كان من بين الأساليب المستخدمة في القرآن الكريم ما يلي :

1 – الأساليب العلمية الاستنباطية و الحقائق الكونية :

لقد تبنى القرآن الكريم الأسلوب العلمي و استخدم الحجاج العقلي كمنهج أصيل من مناهجه و هذا الأمر واضح و متكرر في أسلوب القرآن الكريم و سياقه حتى أنه يمكن القول أن القرآن الكريم لا يفضل إلا النظرة العلمية للأمور ، و مطالبته المتكررة بإعطاء الدليل و البرهان تقوم كأعظم شاهد على النزعة العلمية الصارمة 2 بالإضافة إلى الدعوة الصريحة إلى التفكير و التدبر و التأمل و توجيه النظر إلى الآيات الكونية و العقلية التي تؤكد ذلك قوله تعالى : (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *) 3 و من الأمثلة التي تحت على استخدام العقل قوله تعالى في محكم تنزيله : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبْنَا وَقُضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ *) 4 و قوله تعالى أيضا : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) 5

ها هو القرآن الكريم يعرض هذه الآيات بأسلوب أخاذ ليُعيد طراوتها في الأذهان ، فكأنها تُرى لأول مرة ، يلفتُ النظر على هذه الأرض الفسيحة ، وقد سُقيت ورويت بماء الحياة ، فاكتظت أعاليتها بالنعم الوافرة ، من أنهار جارية ، وأشجار مثمرة ، و زروع نضرة ، و جبال شامخة راسية ، و بحار واسعة مترامية ، و من أمثلة الدعوة إلى التفكير في آيات الله الكونية قوله تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خُلِقَتْ هَذَا بِإِطْلَافٍ سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ *) 6 فالخالق عز وجل بمنه وكرمه وفضله قد أظهر لنا آياته في كتاب منظور نراه ونحس به ، وكتاب نقرؤه ونرتله ألا وهو القرآن الكريم بآياته و عظاته ، الذي يعمد إلى تنبيه الحواس و المشاعر وفتح العيون والقلوب إلى ما في هذا الكون العظيم من مشاهد و آيات ، تلك التي أفقدتها الألفة غرابتها ، وأزالت من النفوس عبرتها ، فكلها دعوات إلى إعمال العقل و التدبر في الكون و تأمل مدى دقته و تناسق نواصيه و أجزائه لأن الناظر في آيات الكون و آفاقه لا بد و أن يستشعر عظمة خالقه و يستنبط مدى قوته و جبروته و أنه الإله الواحد من خلال هذه الحقائق الكونية التي تمثل حججا علمية و أدلة وبراهين قاطعة على وجود الله و قدرته اللامحدودة ، و تقوم أغلب هذه الحجج في هذا السياق على المقدمات العلمية المأخوذة من الواقع المشاهد و من الخبرة الإنسانية التي لا يتسرب إليها الشك أو الكذب .

2 – أساليب التحليل النفسي :

لقد عمد القرآن الكريم إلى أسلوب التحليل النفسي في مواجهة الخصوم بمواقفهم النفسية و أما بالنسبة لسيد الخلق سيدنا محمد " صلى الله عليه و سلم " فقد بعث في زمن البلغاء و الفصحاء و أئمة البيان و فحول الشعراء حيث كان التحكم في زمام اللغة و البراعة في البلاغة و اللعب بالألفاظ مما يعلى شأن الشخص في قومه و يرفع من مقامه فهي بمثابة السيف للفارس و كلاهما مما يضع الفرد أو يرفعه في قومه ، و قد جاء القرآن الكريم حجة داحضة لهؤلاء ببلاغة ساحرة للألباب سالبة للعقول بفضل

فصاحته و قوة بيانه حتى و إن كان ظاهر هؤلاء الكفر و التكذيب إلا أن القرآن الكريم لم يتوانى عن كشف قناعاتهم الأصلية قال تعالى : (وَجَحِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلوًّا ۚ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) 25 و تحداهم على أن يجاروا هذا القرآن و يأتوا بعشر سور من أمثاله بل بسور بل بآية ، قال تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) 26 وقال أيضا : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) 27 و ليس هذا فحسب بل يتحدى الإنس و الجن على حد سواء أن يجاروا هذا القرآن و يأتوا بمثله و هل يملكون بعد هذا إلا الإقرار بإعجازه البلاغي التام فضلا عن إعجازه العلمي و النفسي و الكوني و ما ذلك إلا لأن كلام الرب لا يضاهيه كلام الخلق أبدا مهما كانوا ، قال تعالى : (قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) 28 فلا ريب في عجزهم و الله تعالى يقول معظما لأمر القرآن و مبينا لعلو قدره : (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدَّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) 29 و ضرب التصدع مثلا لشدة الانفعال و التأثير لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تتشق و تتصدع إذ لا يحصل ذلك لها بسهولة 30 كما ذكر ابن عاشور ، فهذا الجبل في غلظته و قسوته و صلابته يخر خاشعا أمام كلام الله تعالى فكيف الحال بالبشر الضعفاء الذين لا يملكون قوة و لا قدرة و لا مشيئة و لا إرادة حتى يعارضوا حكم الله و يزامونه ملكه تبارك عن ذلك و تعالى علوا كثيرا يقول سيد قطب معقبا على هذه الآية : " فإن لهذا القرآن لثقلا و سلطانا و أثرا مزلزلا لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته . " 31 و هذا الذي حصل في نفوس عرب قريش أرباب البلاغة و البيان .

لقد أنتت معجزات الأنبياء – عليهم السلام – متوافقة متجانسة مع الأنماط الثقافية و الاجتماعية السائدة في زمن كل نبي ، فإذا ما عجزت الثقافة السائدة عن المجابهة و التصدي أيقن المجتمع ذي الفطرة السليمة أن ما جاء به النبي الذي أرسل إليهم هو من عند الله تعالى فتقوم الحجة و يقع الدليل و البرهان فتسود ثقافة جديدة تغمر مجتمعا جديدا ممتثلا لأوامر الله سبحانه و تعالى مجتنباً لنواهيه و لا يتخلف عن الركب إلا مكابر ذلك أن تلك الرسائل جاءت حاملة لذلك البعد الاجتماعي و الثقافي الذي يهدف إلى تعديل و إعادة صياغة السلوكات الاجتماعية المتفق عليها من قبل الجماعة ، و تجديد متطلبات ثقافية و قواعد سلوكية من خلال أدوار محددة ، و كانت المعجزات المجال الأمثل الذي تجسد فيه هذا المطلب . 32

و يقع ضمن هذا النطاق أيضا الحجاج عن طريق التدرج في الأحكام و التشريعات إذ يكون من الضروري أحيانا التدرج في ذلك نظرا لطبيعة تعلق المجتمعات المعنية ، بتلك الأحكام و طبيعة تعاملها الحميمة معها من ذلك التدرج في تحريم " الخمر " في المجتمع العربي حديث العهد بالإسلام و الكل يعلم ما تعنيه الخمر عند العرب و تعلقهم بها فقد قالوا فيها ما قالوا من الغزليات و مدحوا فيها ما مدحوا ، فكانت البداية بالتقليل من شأنها و بيان مضارها قال تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) 33 هذا في المرحلة الأولى .

أما في المرحلة الثانية فقد جاء النهي واضحا عن الاقتراب من الصلاة في حالة السكر فالخمر تذهب العقل و من أركان الصلاة الأساسية حضور العقل و بالتالي فهذا مما لا يتماشى لإقامة ركن من أركان الإسلام و هو الصلاة قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) 34 . بعد هذا جاء النهي القطعي عنها و تحريمها النهائي في مرحلة أخيرة ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) 35 . ومنه تحول هذا النهي تدريجيا إلى سلوك اجتماعي محرم و منبوذ في المجتمع المسلم .

و بمراجعة الأدلة التاريخية الوثيقة التي استند عليها القرآن الكريم في الرد على الخصوم ، نجد أنها جسدت أداة مثالية لرد المجادلين و ردعهم وذلك بذكر أخبار الأمم السالفة و التذكير بما آلا إليه و ما كانت عاقبة كفرهم و جحودهم تارة و عرض الحقائق المثبتة للرد على بعض الادعاءات التاريخية المغلوطة التي يستدل بها الخصوم تارة أخرى . فالسرد التاريخي في القرآن الكريم عمل على توضيح المآل و العبرة من سوانف الأمم ، أي الجوهر و المغزى وهو خطاب موجه لذوي البصيرة النافذة القادرين على سبر هذا المغزى والإفادة منه في واقع حياتهم والتخطيط لمستقبلهم ، وليس لذوي المصالح والأهواء. وهو أيضًا حديث يحمل مصداقيته المنبثقة عن علم الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي وسع كل شيء علمًا. فهو إذن ليس أهواءً وظنونًا كما هو الحال في الجهد التاريخي الوضعي ، أو حديث مفترى من نسج الخيال و إنما هو حقائق و وقائع ثابتة لها ما يدعمها من الأدلة الصريحة ، و قد اهتم القرآن الكريم بسرد تاريخ الأمم السابقة ؛ إمعانًا في تحديه للمعارضين له فيُخبر عن حياة أناس عاشوا من آلاف السنين بصورة موثقة ، وبدقة متناهية ، لا يصل إليها المؤرخون مهما أوتوا من أدلة مادية.

وإذا مضينا لمطالعة القرآن الكريم ، فإننا سنجدده يخصص مساحات واسعة للخبر المتحقق في الماضي ، أي للتاريخ. من قصص الأنبياء والشهداء والحكماء و الصالحين و أخبار الملوك و الأمم والشعوب والجماعات والقرى التي جسدت حلقات من الصراع الطويل بين الحق والباطل ، فهي ليست مجرد قصص و أحداث للتسلية و إنما هي عبارة عن شبكة خصبة من قيم نهوض الأمم والجماعات والحضارات وعوامل تدهورها وسقوطها ، قال تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) 36 و هذا القص التاريخي الدقيق الذي أوحى إلى النبي محمد " صلى الله عليه وسلم " و هو النبي الأمي الذي لم يعرف معلمًا يوما لخبر دليل على صحة الوحي و على صحة النبوة يقول الله تعالى مخففا على نبيه داعيا إياه إلى الصبر و الثبات و أن له فيمن قبله من الأنبياء و الرسل خير عبرة و أكبر عزاء : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ * حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) 37 إنها البشرى للنبي محمد صلى الله عليه وسلم حيث يخبره الله تعالى أرسل للناس من قبل رسلا منهم و من أهلهم ، فلقوا من أقوامهم مثل ما يلقي من قومه عليه الصلاة و السلام من الكفر و الإعراض و المحاربة حتى إذا يؤس هؤلاء الرسل و الأنبياء و ظنوا أنهم كذبوا جاءهم النصر المبين من عند الله تعالى على من عاداهم . و من ذلك أيضا الرد على بعض اليهود و النصارى الذين أدعى كل فريق أن النبي إبراهيم " عليه السلام " منهم طعنا منهم في دين الله الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يقول الطاهر بن عاشور : " و زعم كل فريق منهم أنهم على دينه (أي إبراهيم عليه السلام) توصلا إلى أن الذي خالف دينهم لا يكون على دين إبراهيم كما يدعي النبي محمد صلى الله عليه وسلم فالمحاجة فرع عن المخالفة في الدعوى . و هذه المحاجة عن طريق قياس المساواة في النفي ، أو في محاجتهم النبي في دعواه أنه على دين إبراهيم محاجة يقصدون منها إبطال مساواة دينه لدين إبراهيم " عليه السلام " بطريقة قياس المساواة في النفي أيضا " 38 يتعلق ذلك بقوله تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *) 39 حيث تواجه هذه الآيات " أهل الكتاب - اليهود و النصارى - بسخف موقفهم و هم يحاجون في إبراهيم " عليه السلام "

فيزعم اليهود أنه كان يهوديا ، و يزعم النصارى أن كان نصرانيا . على حين أن إبراهيم (تاريخيا) سابق لليهودية و النصرانية ، سابق للتوراة و الإنجيل . و الحجاج فيه على هذا النحو وراء لا يستند إلى دليل ... و يقرر حقيقة ما كان عليه إبراهيم لقد كان على دين الإسلام ... و من ثم تسقط ادعاءات هؤلاء و هؤلاء ، و يتبين خط الإسلام الواصل بين بين رسل الله و المؤمنين بهم على توالي القرون ... يلي ذلك في السياق كشف الهدف الأصيل الكامن وراء ممارسة أهل الكتاب في إبراهيم و غير إبراهيم فهو الرغبة الملحة في في إضلال المسلمين عن دينهم و تشكيكهم في عقيدتهم . 40 فلا العقل السليم و لا المنطق يقبل ما يدعيه هؤلاء و إبراهيم عليه السلام كان زمنه قبل زمن موسى عليه السلام و زمن المسيح عليه السلام بدهور .

4 - ضرب الأمثال (قياس التمثيل) :

تبنى القرآن الكريم أساليب القص و ضرب الأمثال كواحدة من الأساليب الحجاجية المتعددة التي تهدف إلى إثبات أو نفي بعض المعتقدات الخاطئة عن الله "جل في علاه" أو عن المخلوقات و الآيات الكونية و كذلك استخدمت كأداة للترهيب و أخذ العبر أيضا و لتقريب الحقائق و إلباس المعاني لباسا حسيا قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) * 41 و مثل هذا نجد في سورة مريم الآية 64 و 66 ، فمن البديهي إذا أن الذي خلق السماوات و الأرض قادر على خلق الناس بعد الموت و هو على ذلك أقدر و كيف لا و هو الذي أوجد الأشياء أول مرة و لم تكن شيئا ، وإعادة إحيائها أهون عليه من باب أولى و هذا الأمر الذي أكد عليه في الآية الأخيرة ، يقول الطاهر بن عاشور فيها : " هذه فذلقة الاستدلال و فصل المقال ... " 42.

و قال تعالى أيضا : (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ *) 43

يضرب الله تعالى مثلا لأعمال الذين كفروا و يشبهها بالرماد الذي اشتدت به الرياح في يوم عاصف فهي لا تبقي منه شيئا و لا تذر دلالة على إحباط أعمالهم وأن كل ما يفعلونه لا يعدوا أن يكون هباء منثورا فهم في ضلال بعيد ، في نتيجة طبيعية لمن تركوا طريق الحق و اتبعوا طريق الشرك و الضلال و هذا الأمر هو ما يعرف " بقياس التمثيل " الذي يعني : " إلحاق أحد الشئيين بالآخر ، و ذلك بأن يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه أو على أمر بديهي لا تنكره العقول و يبين الجهة الجامعة بينهما " 44 و قد استعان القرآن الكريم كما أسلفنا بهذا النوع من القياس لتقريب الحقائق و الوقائع و إسقاطها على الواقع الذي تمثل له .

5 - النقض و النفي الكلي:

و فيه قلب معاني الخصم عليه بلغته و أسلوبه و معانيه مما يبطل حجة و يسفّه أدلته ، قال تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَآلَفَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ.) 45 ففي الآية توبيخ كبير لمن وصفوا الله - تبارك و تعالى عن ذلك علوا كبيرا - بالبخل و الإمساك و قد نقض الله تعالى قولهم هذا و فنده كليا فهو واسع الفضل جزيل العطاء .

6 - مجارة الخصم و الاستدراج بالأسئلة :

و هي من الأساليب التي اتبعها القرآن الكريم كثيرا فقد يجاري الخصم و يتدرج معه بالأسئلة و الحجج المنطقية التي لا يستطيع الخصم إنكارها ليلزمه الحجة على إبطال دعواه و ليخضعه للحق و الاعتراف به ففي افتراض موافقة ما يدعيه هؤلاء المنكرين و التسليم بما يريدون ، يقول تعالى : (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ *) 46 فهو يجاري الخصوم وينطلق من مقدماتهم مفترضا التسليم بحججهم و يقرر النتيجة أنه لو كان كما يقولون لكان على هيتهم حتى يتمكن من مخاطبتهم و لو كان كذلك لالتبس عليهم و لكذبه كما كذبوا الرسل من قبله ، و احتجاجهم هذا بالذي طلبوه لا يعجل إلا بنهايتهم و عقابهم فهم لن يصدقوه على أية حال و لوجدوا من المبررات و الحجج الواهية ما يزيد من غضب الرب عليهم فيذهبهم جميعا . و من النماذج على أساليب الاستدراج بالأسئلة قوله تعالى : (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ *) 47 و هذا ردا على من ادعى وجود غير الله فهذا النظام العجيب لا يكون إلا بقدرة قادر صاحب إرادة كاملة و واحدة و إلا لاختل هذا النظام و تزعزع و النتيجة الوحيدة التي يستلزمها كل ما سبق هو وجود الإله الواحد وهي نتيجة حتمية لا يشوبها شك أو اضطراب .

7 _ المقارنة :

و هو أسلوب اعتمد في القرآن الكريم انطلاقا من المقارنة بين ما يدعيه الخصوم و بين ما يثبتته القرآن من حجج منطقية تقابل ادعاءاتهم و تنقضها قال تعالى : (وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ *) 48 فالمعنى أنه ليس من يخلق هذه الأشياء جميعا كمن لا يخلق بل إنه هو نفسه مخلوق و لا يقدر البتة على شيء فكيف لهذه الأصنام الجامدة أن تكون هي الإله الخالق لكل شيء ما يدعي المشركون ، يقول الطاهر بن عاشور : " بعد أن أقيمت الدلائل على انفراد الله بالخلق و ثبتت المنة و حق الشكر ، فرع على ذلك هاتان الجملتان لتكونا كالنتيجتين للأدلة السابقة إنكارا على المشركين ؛ فالاستفهام على المساواة إنكاري أي لا يستوي من يخلق بمن لا يخلق فالكاف للمماثلة و هي مورد الإنكار حيث جعلوا الأصنام آلهة شريكة لله تعالى و من مضمون الصلتين يعرف أي الموصولين أولى بالإلهية فيظهر مورد الإنكار ... و في هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم ، و تعريض بفضاعة كفر من كفروا بهذا المنعم و تغليظ و تهديد لهم . " 49

هكذا إذا تعددت أساليب الحجاج في القرآن الكريم منها ما ذكرنا و غيرها كثير جدا و في ذلك الكم الهائل من الآيات تعددت أساليب التعبير و تنتوع الحجج ، فقد ترد تلك الحجج تارة على شاكلة الحجج العقلية و المنطقية و الحقائق الكونية و تارة من الأدلة التاريخية و الأمم السالفة و المعايير الاجتماعية مما لا يمكن إنكاره ، و نراه في أحيان أخرى يطلب الأدلة من الخصوم لتثبيت حججهم ، لعلمه تعالى أنه لا أدلة لديهم و من الأساليب كذلك أسلوب " السجال " و ذلك بدفع التهم عن النفس و رمي الخصوم بها ، و تمر بنا كذلك الأساليب التي تعتمد على التركيز على حجة الخصم و إظهارها لإبطالها لاحقا و تسفيهاها ، كما جاء قسم من الآيات بأسلوب الحجاج بالنقائض و ذلك بقلب معاني الخصم عليه بلغته و أسلوبه ، و قد نراه يرد على الحجة غير المدركة بالحواس بما يدركه المحاجج لإفحامه . و في أحيان أخرى نراه ينكر حجة الخصم

لانتقاء علاقتها بالواقع ، و قد يتدرج مع الخصم بالأسئلة و الحجج المنطقية التي لا يستطيع المحاجج نكرانها لإلزامه بها ، و قد يجاريه ليصل في النهاية إلى إبطال حجته ، و نراه في بعض الأحيان يرد على ألسنة الرسل على حجج المشركين التعجيزية بأنهم بشر متواضعون لا يميزهم إلا تكليفهم الإلهي بالرسالة ، و قد تأتي بعض الحجج في القرآن مباشرة قوية شديدة و صريحة تفحم الخصم و ترد حجته ، و أحيانا يستخدم أسلوب التهديد و الوعيد تارة و اللين و الترغيب و الأساليب النفسية الأخرى تارة أخرى ، و قد يستخدم القرآن أيضا أسلوب المقارنة بين حجة الخصم و حجج الأنبياء المنطقية أو حجج الخلق و الحجج الكونية و العقلية ليفعل عقل الخصم و يقوده لإدراك حجة الله البالغة ، و قد ينتقل من الحجج غير المفهومة من الخصم إلى حجج أخرى لا سبيل إلى إنكارها ، و قد نراه تارة يعمد إلى السبر و التقسيم بأن يقسم حجة الخصم لإبطال أقسامها قسما قسما فتبطل بذلك كاملة ، و تارة أخرى يعمد إلى اتقاء حجج الخصم و يحذر من العاقبة السيئة التي سيؤول إليها المعاندون قبل دحضها 50.

خاتمة :

لقد وظفت إذا كل هذه الأساليب الحجاجية في القرآن الكريم على تنوعها و تعددها لخدمة هدف واحد هو الإقناع بوحداية الله تعالى و إثبات عقيدته و ذلك بتفنيد ادعاءات الخصوم و اقتراءاتهم و بذلك لم يتبقى لهم غير سبيلين إما الإيمان بالله سبحانه و تعالى و وحدانيته و قدرته و ملكوته و أنه صاحب الإرادة و المشيئة القاهرة ، و إما الإصرار على الكفر و الضلال بالمعاندة و المكابرة إذ ليس هنالك مجال لاختراع الحجج أو الاجتهاد في ذلك و مهما حاولوا فإن القرآن الكريم قطع عليهم كافة سبل المحاجبة و أبطل كل ما استدلوا به و أفحم جهابذة الألفاظ لديهم و أئمة البلاغة و البيان ، ذلك أن كل الآيات القرآنية جاءت محملة بكل خصائص الرسالة الإقناعية المثلى من خلال طرح رباني متكامل جلّ أن يمسه النقص أو يلحقه الفتور بني على أساس متين من الحجة و الإقناع مميّزه الوضوح و الشامل و الاعتماد على المصادر الموثوقة إضافة إلى ذلك تحفيز وإثارة عقل الإنسان لحثه على التذكر و التدبر و جعله يصل إلى الاقتناع الذاتي بما جاء في دين الله سبحانه و تعالى و بما بثه الله تعالى في آياته تجعل النفس مطمئن و تستكين لها .

لقد امتزجت الأساليب المنطقية العقلية بالأساليب العاطفية المثيرة في القرآن الكريم دون أن يكون ذلك على حساب أدلته و براهينه ، فليس الهدف من تقديم تلك الدلائل تعجيز الإنسان و تعطيله و إنما الهدف من ذلك هو إثارته و تحريك تطلعاته المعرفية التي تقوده إلى التأمل و التدبر في أمور ذات صلة بحياته و مصيره فهو يخاطب العقل و القلب معا لجعل بذور العقيدة التي يدعوا إليها ضاربة في أعماق النفس البشرية للتأثر و من ثم اقتناع العقل بواسطة الحجج فأدلة القرآن واضحة جليّة و هي في أغلبها مسلمات بديهية يدركها جميع الناس .

الهوامش و الإحالات :

- ¹ - زكريا بشير إمام ، أساليب الحجاج في القرآن الكريم – نماذج من الحجج الاستنباطية - ، مطبوعات الحركة الإسلامية الطلابية ، المركز القومي للإنتاج الإعلامي ، 1415هـ - 1995 م ص : 4
- ² - ينظر : نفسه ، ص : 21 .
- ³ - سورة الصافات ، الآيتين : 156 ، 157 .
- ⁴ - سورة عبس ، الآيات من : 24 ، إلى : 32 .
- ⁵ - سورة الغاشية ، الآيات : 17 ، 18 ، 19 ، 20 .
- ⁶ - سورة آل عمران ، الآيتين : 190 ، 191 .
- ⁷ - معتصم بابكر مصطفى ، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم ، كتاب الأمة ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، ط 1 ، ع 95 ، قطر ، 1424 هـ - 2003 م ، ص : 78 .

- 8 - سورة الإسراء ، الآيتين : 9 ، 10 .
- 9 - محمد الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير و التنوير ، ج : 15 ، الدار التونسية للنشر ، (د. ط) ، تونس ، 1984 م ، ص : 40 ، 41 .
- ¹⁰ سورة طه ، الآيات من : 120 ، إلى ، 125 .
- ¹¹ - سورة الأنعام ، الآية : 125 .
- 12- ينظر : محمد الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير و التنوير ، ج : 8 ، ص : 55 ، 56 .
- 13 - سورة غافر ، الآيات : 70 ، 71 ، 72 .
- 14 - ينظر : سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مج : (5) ، ج : (24) ، دار الشروق ، ط 32 ، القاهرة ، بيروت ، 1423 هـ - 2003 م ، ص : 3096 ، 3097 .
- 15- سورة الأنعام ، الآية : 83 .
- 16 - ينظر : التهامي نقرة ، سيكولوجية القصة في القرآن ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، 1974 م ، ص : 451 .
- 17- ينظر : معتصم بابكر مصطفى ، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم ، ص : 83 .
- 18- ينظر : من أساليب الإقناع في القرآن الكريم ، ص : 84 .
- 19- نفسه ، ص : 85 .
- 20- سورة الشعراء ، الآيات من : 22 إلى 46 .
- 21 - الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير و التنوير ، ج 19 ، ص 121 .
- 22- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مج : 5 ، ج : 19 ، ص : 2595 .
- 23 - سورة آل عمران ، الآيات من : 48 ، إلى ، 50 .
- 24- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مج : 1 ، ج : 3 ، ص : 399 .
- 25- سورة النمل ، الآية : 14 .
- 26- سورة هود ، الآية : 13 .
- 27- سورة يونس ، الآية : 38 .
- 28- سورة الإسراء ، الآية : 88 .
- 29 - سورة الحشر ، الآية : 21 .
- 30- الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير و التنوير ، ج : 28 ، ص : 116 .
- 31- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مج : 6 ، ج : 28 ، ص : 3532 .
- 32- ينظر : من أساليب الإقناع في القرآن الكريم ، ص : 93 .
- 33- سورة البقرة ، الآية : 217 .
- 34 - سورة النساء ، الآية : 43 .
- 35- سورة المائدة ، الآية : 92 .
- 36- سورة يوسف ، الآية : 111 .
- 37 - سورة يوسف ، الآيتان ، 109 ، 110 .
- 38- الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير و التنوير ، ج : 3 ، ص : 270 .
- 39 - سورة آل عمران ، الآيات : 64 ، 65 ، 66 .
- 40- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مج : 1 ، ج : 3 ، ص : 409 .
- 41- سورة يس ، الآيات : من : 76 ، إلى : 81 .
- 42- الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير و التنوير ، مج : 23 ، ج : 28 ، ص : 79 .
- 43- سورة إبراهيم ، الآية : 21 .
- 44- زاهر عواض الألمعي ، مناهج الجدل في القرآن ، مطابع الفرزدق التجارية ، (د. ط) ، (د. ت) ، ص : 72 .
- 45- سورة المائدة ، الآية : 66 .

- 46- سورة الأنعام ، الآيتين :9 ، 10 .
- 47- سورة المومنون ، الآيات من : 85، إلى : 92 .
- 48- سورة النحل ، الآيات من : 15 ، إلى ، 20 .
- 49- الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير و التنوير ، ج 14 ، ص : 123 ، 124 .
- 50- للتوسع و المزيد ينظر : موفق أسعد محمد ، أساليب الجدل في القرآن الكريم ، مجلة ديالي ، ع : 53 ، 2011 م ، ص : 568 .